

الموضوع: لم آت لأدعو أبرارا

برنامج أنوار كاشفة

ما هو أول شيء يتبادر إلى ذهنك يا صديقي عندما تصاب بمرض أو وعكة صحية؟ الجواب بالطبع هو أن تذهب إلى الطبيب وتطلب مساعدته. فهو المختص المؤهل لكي يعالج المرضى ويقدم لهم الدواء المناسب. وفي المقابل إن الإنسان لن يفكر بالذهاب إلى الطبيب إذا كانت صحته جيدة، ولا يعاني جسمه من أي ضعف أو ألم. لا بل نتمنى جميعنا أن لا نحتاج للذهاب إلى الأطباء، وتناول الدواء.

هل تعلم يا صديقي أن ما يحصل في أجسامنا هو مشابه لما يحدث في وضعنا الروحي أيضا؟ فكما تمرض الأجسام وتضعف، هكذا حياتنا الروحية تكون في حالة مرض. وهذا ما سنوضحه في لقاء اليوم.

كان المخلص يسوع المسيح مرة مجتازا في بلدة كفرناحوم بمنطقة الجليل في شمال فلسطين. فرأى هناك إنسانا عشارا، أي جابيا للضرائب، اسمه متى، جالسا عند مكان الجباية. فقال له المخلص المسيح تعال اتبعني. فترك متى كل شيء وقام وتبع المسيح. ثم دعا متى المسيح إلى بيته وصنع له وليمة كبيرة. وبينما كان المسيح هناك مع تلاميذه، أتى عشارون وخطة كثيرون، وجلسوا معهم. فلما رأى الفريسيون والكتبة اليهود، المسيح جالسا مع العشارين والخطة، تدمروا إلى تلاميذ المسيح قائلين: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين جباة الضرائب الظالمين والخطة؟ فلما سمع المسيح كلامهم أجابهم قائلا: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلموا ما هو: إني أريد رحمة لا ذبيحة. لأنني لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة. راجع (متى ٩: ٩-١٣) ، (لوقا: ٥: ٢٧-٣٢)

ما هي الدروس التي نتعلمها من هذه الحادثة التي دونها لنا الإنجيل المقدس؟ لقد كان متى الذي دعاه المسيح، إنسانا فاسدا. إذ كان وكيفا عن جباية الضرائب الباهظة من شعب بلدته كفرناحوم.

وكان العشارون فئة مكروهة لدى الشعب في تلك الأيام، وهم الذين يجمعون الضريبة أي الأعشار في الامبراطورية الرومانية. وكان العشارون عادة من الرومان الأثرياء الذين يتعهدون للدولة بجمع الضرائب المطلوبة. وفي حالة عجزهم عن جمع المبلغ المطلوب كان عليهم أن يسددوه من جيوبهم. لهذا كانوا يعينون الوكلاء من غير الرومانيين، لكي يجبوا الضرائب الباهظة من الشعب. وكان هؤلاء الوكلاء يتميزون بالقسوة والظلم لكي يستطيعوا جمع المبلغ المطلوب من سادتهم. ولهذا احتقرهم الشعب، ومنعهم من دخول الهيكل والمجامع، والإشتراك في الصلاة والحفلات العامة.

وكان متى العشار الوكيل لعشار بلدة كفرناحوم، أحد هؤلاء الوكلاء اليهود غير الرومانيين. وكذلك كان زكا العشار وكيلا لعشار منطقة أريحا. وقد بلغ من نقمة الشعب على العشارين أن المسيح نفسه أتهم بالأكل معهم. لكن المخلص المسيح بالرغم من كرهه الشعب للعشارين، نراه يدعو متى العشار الخاطئ لكي يتبعه ويصبح تلميذا له. وكان الأمر المفاجئ أن لبي متى دعوة المسيح، وترك مركز عمله وأصبح تلميذا للمسيح. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل نجد أن متى دعا المسيح إلى بيته، وأقام له وليمة كبيرة.

والجدير بالذكر أن التلميذ متى كتب فيما بعد إحدى البشائر الأربع، والمعروفة بالإنجيل بحسب بشارة متى. وبما أن متى كان عشارا معروفا فقد أتى إلى الولىمة التي أقامها للمسيح، الكثير من العشارين زملائه، والناس الخطاة. وهذا ما لم يعجب اليهود المتعصبين من الفريسيين والكتبة، الذين أبدوا اعتراضهم للتلاميذ. وكان اعتراضهم كيف يجرؤ المسيح الذي يدعي بالنزاهة والبر، على الجلوس والأكل مع هؤلاء العشارين والخطاة؟ وهو اعتراض قد يبدو منطقيا من الناحية البشرية. لكن المخلص المسيح بإجابته كشف لهؤلاء اليهود المتعصبين عن الهدف الأساسي من مجيئه إلى عالنا. إذ أعلن قائلا: " لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلموا ما هو. إني أريد رحمة لا ذبيحة. لأنني لم آت لأدعوا أبرارا بل خطاة إلى التوبة."

أي أكد المخلص المسيح أن هدف مجيئه إلى عالنا، هو هم هؤلاء الناس العشارين والخطاة. لأن هؤلاء العشارين يعترفون أنهم خطاة ومرضى روحيا، وبحاجة إلى العلاج، وإلى الخلاص. فالمرضى كما قال المخلص المسيح هم الذين يحتاجون إلى طبيب وليس الأصحاء. ولقد أتى المسيح لكي يقدم لهؤلاء المرضى الخطاة، الرحمة والخلاص، وأتى ليدعوهم إلى التوبة. استنادا على هذا الكلام، لم يكن غريبا أن يدعو المخلص المسيح إذن، متى العشار الخاطئ لكي يصبح تلميذا له. ولم يكن غريبا أيضا أن يجلس مع هؤلاء العشارين والخطاة ويأكل معهم، لأن هدفه هو علاجهم ورحمتهم. ومن ناحية أخرى إن تجاوب متى العشار مع دعوة المسيح له، يؤكد صحة رسالة المسيح، أنه قد أتى فعلا لكي يحرر الناس الخطاة من نير العبودية، وليهبهم الرحمة والخلاص.

لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آت لأدعوا أبرارا بل خطاة إلى التوبة. حقا ما أعظم هذا الكلام الذي قاله المسيح وما أعمله. وأنت صديقي المستمع ممن تعتبر نفسك من الأصحاء روحيا أم من المرضى؟ إسمع صديقي هذا المثل الذي قصه المسيح لقوم واثقين أنهم أبرار ويحتقرون الآخرين. قال:

إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا واحد فريسي والآخر عشار. أما الفريسي فوقف يصلي في نفسه هكذا. اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار. أصوم مرتين في الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه. أما العشار فوقف

من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء. بل قرع على صدره قائلاً: اللهم ارحمني انا الخاطيء. وهنا علق المسيح قائلاً: أقول لكم أن هذا نزل إلى بيته مبرراً دون ذلك. لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع. (لوقا ١٨: ٩-١٤)

لقد كان الفريسي اليهودي يظن أنه إنسان صالح. فهو رجل متدين، يقوم بواجباته الدينية، وليس مثل باقي الناس الخطاة الأشرار، ولا مثل هذا العشار، فهو يصوم مرتين في الأسبوع، ويعطي عُشراً لكل ما يفتنيه للهيكل. بينما وقف العشار خجولاً من نفسه، معترفاً أنه إنسان خاطيء، وبحاجة إلى رحمة الله. فصلّى قائلاً: اللهم ارحمني انا الخاطيء. وكانت النتيجة أن استجاب الله لصلاة هذا العشار الخاطيء ورحمه، إذ ذهب إلى بيته مبرراً.

إن هذا المثل يكشف لنا عن وجود نوعين من البشر في كل زمان ومكان. النوع الأول الذي يعتد بنفسه، ويظن أنه إنسان صالح، يقوم بواجباته الدينية، وليس بحاجة إلى رحمة الله. أما النوع الثاني من البشر فهو الذي يقر ويعترف أنه إنسان خاطيء، وبحاجة إلى رحمة الله. وهذا النوع هو الذي يحظى فعلاً برحمة الله وخلصه. لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع. وبتعبير آخر إن النوع الثاني من البشر، هو النوع المطلوب. فلا وجود لإنسان صالح بار، حتى وإن كان يقوم بواجباته الدينية، إذ كما تخبرنا كلمة الله المقدسة أننا كلنا كبشر خطاة، وبحاجة إلى رحمة الله وخلصه. هذا الخلاص الذي أتى المخلص المسيح من السماء لكي يوفره لنا، وذلك عن طريق الإيمان بموته الكفاري على الصليب، وقيامته الظاهرة من بين الأموات. فهل تقر وتعترف يا صديقي أنك إنسان خاطيء وبحاجة إلى رحمة الله؟ وهل تصلي مع هذا العشار الخاطيء قائلاً: اللهم ارحمني انا الخاطيء؟